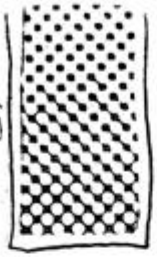

فى عائلة الكركاج

قصة الكاتب الفرنسى : جى دى موباسان

ترجمة : سعدية صبرى

كان ترام « نيبه » قد جاوز لتوه مدخل « مايو » وانطلق الآن على طول الطريق المؤدى لنهر « السين » . وكانت المكنة الصغيرة التى تقطر العربة تنفخ بوقها لكى تفسح أمامها الطريق ، وتنفث بخارها وتلهث كمن يلتقط أنفاسه وهو يجرى ، وأساطينها (مكابسها) تحدث ضجة ، متلاحقة ، لقوائمها الحديدية وهى تتحرك . كان ذلك فى نهاية يوم من أيام الصيف ، تهبط حرارته الشديدة فوق الطريق فيرتفع منه ، دون أن يهب أى نسيم ، تراب أبيض طباشيرى كثيف خانق ، يلتصق بالجلد الرطب ويملأ العيون ، ويكتم الأنفاس

أخذ بعض الركاب يهرعون الى الأبواب باحثين عن الهواء ، وأنزل زجاج العربة وأخذت جميع الستائر تخفق مهتزة من سرعة العدو ، أما الذين احتلوا داخل العربة فهم القلة ؛ لأنه فى مثل هذه الأيام الحارة تكون الأفضلية فى الجلوس دائما للدور العلوى من العربة أو سطحها . فأولئك سيدات بدينات مزينات بطريقة غريبة لافتة للأنظار ، انهن من ساكنات الضواحى اللاتى يستعضن عما ينقصهن من صفات بعظمة متكلفة مصطنعة .

وهؤلاء رجال مكدودون من المكاتب ، وجوههم مصفرة ، وقاماتهم مقوسة لهم كتف تعلو عن الأخرى من طول العمل وهم محنيون فوق المكاتب .

الوجوه قلقة وحزينة تحكى دائما المتاعب المنزلية ، والحاجة غير المنقطعة للمال . والآمال القديمة التى اندثرت، الى الأبد . انهم جميعا ينتمون الى هذا الجيش من الشياطين الرثة الثياب ، التى تدعو الى الشفقة ، تلك التى تنبت باقل النفقات فى منازل حقيرة مبنية بالجبس بجانبها خربات من الأرض تقوم مقام الحدائق ، وسط مزرعة المجارى التى تقع عند أطراف باريس .

بالقرب من باب العربة وقف رجل قصير بدين ذو وجه منتفخ يتدلى بطنه بين ساقيه المنفرجتين ، يرتدى ملابس سوداء مزركشة ، وقف يتحدث مع شخص طويل القامة نحيف ذى مظهر

غير منظم ، يرتدى رداء قذرا من الكتان الأبيض ، وفوق رأسه قبعة عتيقة من خوص « الينانا » . كان الاول يتكلم ببطء مترددا أحيانا حتى ليبدو وكان به لكنة هذا هو السيد « كرافان » ويعمل « باشكاتبا » بوزارة البحرية ، والثانى مراقب صحى سابق على ظهر سفينة تجارية ، انتهى به الأمر أن استقر فى ميدان « كوربفوا » حيث أخذ يطبق على سكان هذه البقعة البؤساء المعلومات الطبية المشوشة التى تبقت له بعد حياة تتسم بالمغامرة . كان يسمى « شينيه » وكان يحلو له أن ينادى بالدكتور ، ومسلكه كانت تحوم حوله الشائعات .

أما السيد كرافان فهو يواصل حياة بيرقراطية عادية . فمنذ ثلاثين عاما وهو يأتى فى رتابة الى مكتبه كل صباح ومن نفس الشارع ، ومقابلا فى نفس الساعة وفى نفس الامكنة نفس أوجه الرجال الذاهبين الى أعمالهم . ويعود منه كل مساء من نفس الطريق حيث يجد من جديد نفس الوجوه التى ظل يراها حتى هرمت .

كان فى كل يوم بعد أن يشترى صحيفته نظير « سو » ـ وهو جزء من الفرنك ـ فى ركن من أركان ضاحية « سانت أونوريه » يذهب ليحضر لنفسه رغيفين صغيرين ثم يتوجه بعد ذلك الى الوزارة كالمذنب الذى جاء ليستقر فى سجنه . انه يبلغ مكتبه فى حيوية لكن قلبه يمتلىء بالقلق فهو دائما فى انتظار التأنيب عن شىء من الاهمال يكون قد اقترفه

لا شىء قط حدث ليغير من نظام حياته الرتيبة . ان أى حدث لم يكن ليؤثر فيه الا ما يتعلق بعمله كالترقيات والعلاوات ولم يكن يتحدث فى أثناء وجوده بالوزارة أو وسط عائلته (فهو متزوج من ابنة أحد زملائه بغير دوطة) لم يكن يتحدث أبدا الا عن العمل ، ونفسه التى أعيتها تقريبا المطالب الملحة التى تتجدد كل يوم ليس لديها أية أفكار أخرى أو آمال أخرى أو أحلام أخر الا تلك التى تتصل بالوزارة

ان الشىء الذى يفسد عليه شعوره بالرضا عن عمله ، هى حسرة مريرة سببها مفاجأة ضباط اتصال البحرية وصناعها بشاراتهم الفضية لأعمال الرؤساء والمرءوسين . وفى كل ليلة أثناء تناول طعام العشاء كان يحاول أن يقيم الأدلة أمام زوجته التى تقاسمه نفس الاحقاد ليثبت أنه من الظلم ـ من جميع الوجوه ـ أن تعطى المناصب فى باريس لأشخاص مخصصين للملاحة .

لقد أصبح كرافان شيخا الآن . لم يشعر ألبتة بحياته وهى تمضى ، فالمكتب ـ وبدون أى تغيير ـ هو امتداد للمدرسة والمشرفون على الدراسة الذين كان يرتعد أمامهم بالأمس استبدل بهم الرؤساء الذين لا يفتأ يتشكك فى نواياهم وهو فزع . وعتبة حجرة هؤلاء المستبدين تجعله يرتعد من قمة رأسه الى اخمص قدمه . وكانت هذه الرهبة الدائمة تكسبه منظرا أبله ومظهرا مستضعفا ونوعا من التأتأة العصبية . انه لا يعرف باريس تماما كما لا يعرفها أعمى يقوده كلبه ، كل يوم فى ممر لا يتغير ، وهو اذا قرأ فى صحيفته ذات « السو » الواحد الأحداث والفضائح مر بها وكأنها قصص خرافية مخترعة ، عن طيب خاطر ، لكى ترفه عن صغار

الموظفين . وبما أنه رجل له مركزه ومعارض دون أن ينتمى لحزب معين وعدو للتجديد ، فانه يعبر الأحداث السياسية التى كانت صحيفته تشوه معالمها دائما لأغراض نظير أجر مدفوع وعندما كان يعود كل مساء من طريق « الشانز اليزيه » كان يتفحص الجمع الحاشد من المتنزهين والسيل المتدفق من التجمعات كعابر غريب يمر ببلاد قاصية

فى السنة نفسها ، عندما أكمل عامه الثلاثين فى خدمة الدولة منحته هذه فى اليوم الأول من شهر يناير وسام « جوقة الشرف » الذى يعطى دائما لموظفى الادارات المدنية التى حولت الى عسكرية تقديرا لخدمتهم الطويلة المضنية، أولئك المذنبين البؤساء الراسخين بالقائمة الخضراء .

هذه العظمة الفجائية أعطته عن مقدرته فكرة سامية وجديدة وغيرت طباعه تغييرا شاملا . فمنذ هذه الساعة استبعد سراويله الملونة ، والسترات المزركشة وارتدى بدلا منها سراويل سوداء أنيقة وسترات ردنجوت طويلة فهى أكثر ملاءمة للنيشان العريض .

انه الآن يحلق ذقنه كل صباح ويقلم أظافره بعناية أكثر ويغير ملابسه الداخلية كل يومين وهو يشعر بشعور حقيقى من الرضا والاحترام للمرتبة الوطنية التى أصبح يحتلها .

لقد أصبح فى يوم وليلة « كرافان » آخر نظيفا مهيبا متواضعا وفى منزله ، وفى كل مناسبة كان يقسم دائما بوسامه لقد انتابه نوع من الفخر جعله لا يعبأ بأية أو سمة يحملها الآخرون ، من أى نوع آخر . وكان يغتاظ على الأخص حينما يبصر أناسا يحملون نياشين أجنبية (وكان رأيه أنه يجب ألا تترك هذه النياشين تحمل فى فرنسا) ذلك ما يريده وخاصة بالنسبة للدكتور « شينيه » الذى يلقاه كل مساء ، وعلى صدره أحد النياشين البيضاء ، أو الزرقاء ، أو البرتقالية أو الخضراء .

كان حديث الرجلين ابتداء من « لارك دى بريومف » الى أن يصلا « نيبه » دائما نفس الحديث ، واليوم ، وكالأيام السابقة ، انشغلا أولا بالمخالفات المحلية التى كانت تنغض كليهما فى الوقت الذى لا يأخذها فيه عمدة «نيبه» مأخذا جديا . وكما يحدث دائما ، والانسان بصحبة طبيب ، فان كرافان يمر على الصفحة الصحية مؤملا أن يستخلص بهذه الطريقة بعض النصائح الصغيرة المجانية أو حتى استشارة طبية يعمل بها دون أن يفطن الى ذلك أحد .

ان صحة والدته تقلقه منذ حين فهى كثيرا ما تصاب باغماءات طويلة ، ثم انها ، على الرغم من شيخوختها ، وعمرها الذى بلغ التسعين ، لا توافق على أن تعالج مطلقا ، ان كرافان يشفق عليها من أجل سنها الكبيرة ، ويردد بدون انقطاع للدكتور « شينيه » : « ألست تراها غالبا وهى قادمة هنا ؟» ويفرك يديه فى سعادة لا لأنه مهتم بكون السيدة المسكينة قد عمرت على وجه الأرض ، ولكن لأن طول بقائها كان بمثابة وعد شخصى له بأنه سيكون

كذلك · ثم يضيف « نحن فى عائلتى نعيش طويلا ، ولذا فاننى واثق بأنه ما لم يقع لى حادث فسأموت شيخا هرما جدا » ويلقى عليه المراقب الصحى نظرة اشفاق ثم يتفحص للخطة وجهه المحمر ورقبته الغليظة وكرشه المتدلى بين ساقين مترهلتين سمينتين ، وهذا الشكل الكروى الذى يؤذن باصابة صاحبه الموظف العجوز الواهن بالسكتة القلبية ، يتفحصه ثم يجيب ساخرا وهو يرفع بيده قبعته « البناما » الرمادية : « ليس هذا مؤكدا تماما يا صديقى الطيب فوالدتك كالمطاط الرفيع ، وأنت مكور كوعاء الحساء (سلطانية الشوربة) » ويرتبك كرافان ولا يحير جوابا ·

ويصل الترام الى المحطة فينزل الرفيقان ويذهبان كعادتهما الى قهوة « جلوبل » المقابلة للمحطة حيث يقدم السيد (شينيه) لصديقه قدحا من النبيذ ، ويمد صاحب القهوة وهو صديق لهما اصبعين من فوق الزجاجات المرصوصة على البار أمامه فيضغطان عليهما محيين · ثم يذهبان بعد ذلك لينضما الى ثلاثة من هواة « الدومينو » جالسين الى مائدة منذ الظهيرة ، وبعد أن يتبادلا معهم العبارات الودية ، وعبارة « ماذا هنالك من جديد » التى لا تغفل يستأنف اللاعبون لعبهم فى الحال ويتمنى لهم السيد «شينيه» وزميله أمسية سعيدة فيمد هؤلاء أيديهم لمصافحتهما دون أن يرفعوا رءوسهم · ثم يذهب بعد ذلك كل منهما الى منزله لتناول العشاء ·

كان كرافان يقطن بالقرب من ميدان «كوربقوا» منزلا صغيرا من طابقين ، وأما (البدروم) فيسكنه أحد الحلاقين

كانت شقته تتكون من حجرتين وحجرة للطعام ومطبخ ، بها بعض الأرائك المجددة التى ينقلونها من حجرة الى أخرى حسب الحاجة اليها ، وتقضى مدام كرفان معظم وقتها فى تنظيفها ، وفى أثناء ذلك تلهو ابنتها «ماريلويز» وعمرها اثنتا عشرة سنة وابنها «فيليب أوجست » وعمره تسعة أعوام فى مستنقعات الشارع مع بقية رعاع الحى

أما والدة كرافان التى أسكنها فوقه فى الطابق العلوى فهى سيدة بخيلة ملأ صيت بخلها جميع الأرجاء ، وكان نحولها خير دليل على أن الله قد طبق عليها نفس تعاليمها فى التقتير · انها ثائرة بغير انقطاع ، لايمر يوم واحد دون أن تتشاجر وأن تهيج هياجا عنيفا فهى تشتم الجيران من النافذة وتبكتهم وهم وقوف أمام أبوابهم ، وجميع الباعة ، والكناسين ، والصبية ، حتى أنهم ـ لكى ينتقموا منها ـ كانوا يتبعونها عن بعد ، وهى تسير فى الشارع ، ويلقون عليها ـ فى شبه زفة ـ عبارات السخرية والاستهزاء·

وكانت هناك سيدة نورماندية مسنة على جانب لا يعقل من البلاهة ، تقوم بأعمال المنزل وتبيت الى جوار السيدة العجوز بالطابق الثانى ، مخافة أن يقع لها حادث ·

وعند ما عاد كرافان الى منزله وجد زوجته ، وهى مصابة بداء التنظيف المزمن ، تلمع بقطعه من قماش «الفانلة» الكراسى المصنوعة من خشب الأبنوس، والمبعثرة داخل الحجرات الخاوية ، انها تلبس دائما قفازا من الخيط ، وتحلى رأسها بقبعة مزينة بشرائط متعددة الألوان تنسدل دائما الى ناحية فتغطى احدى أذنيها ، وكانت تكرر دائما اذا ما فاجاها أحد وهى تنظف وتغسل « اننى لست غنية ، كل شىء عندى متواضع ، ولكن النظافة هى زخرفى الوحيد ، انها تساوى الكثير »

ونظرا لأن الله حباها بعقلية عملية راجحة ، فقد كانت دليل زوجها فى كل شىء ، وكانا كل مساء فى أثناء تناولهما الطعام ، وبعد أن يأويا الى الفراش ، يتحدثان طويلا فى شئون العمل ، ورغم أنها تصغره بعشرين عاما فهو يثق بها كمرشدة له ، ويتبع دائما نصائحها فى كل كبيرة وصغيرة ·

ان مدام كرافان لم تكن جميلة يوما من الأيام ، بل هى دميمة ، ذات جسم ضئيل نحيف ، ترتدى ملابس غير ملائمة لها ، تخفى دائما ما تبقى لها من أنوثة كان من الممكن ابرازها لو ارتدت أزياء أنيقة متقنة · لكنها تلبس دائما « جونلات » تميل الى أحد الجانبين انها تقابل دائما وفى كل مكان بالنفور الذى يتزايد أحيانا حتى يبلغ حد الرجفة عند رؤيتها · والزينة الوحيدة التى سمحت بها لنفسها تتلخص فى مجموعة من الأشرطة الحريرية المتداخلة مثبتة فوق ما تسميه قبعة ، والتى اعتادت ارتداءها فى المنزل ·

وبمجرد أن لمحت الزوجة زوجها نهضت وقبلته فى وجنتيه قائلة : «هل تذكرت ما كلفتك اياه يا عزيزى (انها مهمةوعدها بانجازها) » فارتمىمذعورا على كرسى ، لأنه نسى هذه المهمة للمرة الرابعةوأجاب : «يالسوء الحظ !! يالسوء الحظ !! لقد تذكرتها جيدا طول اليوم ولكننى عند قدوم المساء أنسى دائما » ولما رأت زوجته أن هذا قد أحزنهواسته قائلة : « ستتذكرها غدا ان شاء الله ، ولا شىء هناك » وتابعت الحديث : « هل من جديد فى الوزارة »

ـ نعم نبأ خطير فقد عين أحد الصناع وكيلا للرئيس ·

وبانت عليها أمارات الجد وسألته :

ـ وفى أى مكتب ؟

ـ فى مكتب المشتريات الخارجية ·

وأغضبها هذا النبأ ووقعت قبعتها على كتفها ·

ـ أرأيت أن كل شىء قد انتهى ، هذه العلبة المغلقة لا يمكن العمل بها الآن ·

ومن هو ضابط اتصالك الجديد ؟

ـ « بناسو » ···

وأحضر كرافان دليل البحرية الذى كان دائما فى متناول يده وأخذ يبحث ··· « بناسو ـ ولد بطولون سنة

١٨٥١ ٠٠ مساعد ضابط اتصال سنة ١٨٧١ ووكيل ضابط الاتصال سنة ١٨٧٥ » ٠

ـ هل مارس الملاحة ؟

واستعاد كرافان بشاشته عند هذا السؤال وغمرته موجة من البهجة اهتز لها كرشه الضخم وقال : « انه مثل بالان تماما ، مثل بالان رئيسه » ٠

ثم سرد وهو مستغرق فى الضحك دعابة قديمة كانت تتندر بها الوزارة كلها : « ان بالان وبناسو يجب ألا يرسلا للتفتيش على محطة « بوان دى جور » البحرية عن طريق البحر ، فان سفرهما فوق هذه المراكب الصغيرة سيكون فيه متعبة لهما وسيمرضان » ٠

ولم تغير هذه الدعابة من هيئة مدام كرافان ، وبقيت صارمة كأنها لم تستمع اليها ، ثم همست وهى تدعك فى بطء ذقنها : « لو كان لدينا نائب واحد فى المجلس ، مدين لنا بأى شىء ، لكان يجعل الوزير يقفز من هول الصدمة عندما يعرف الجميع ما يحدث هنا فى داخل الوزارة ٠ »

وانطلقت صرخات على السلم مقاطعة حديثها ٠ ان « مارى لويز » و «فيليب أوجست » وهما عائدان لتوهما من مستنقع فى الشارع يتبادلان على كل درجة من درجات السلم اللطمات والركلات فاندفعت والدتهما وهى فى ثورة عارمة وأمسكت بذراعيهما وألقت بهما داخل الشقة وهى تهزهما بقسوة ٠

وبمجرد أن لمحا والدهما أسرعا اليه فقبلهما فى حنان قبلات طويلة ثم جلس وأجلسهما على ركبتيه وتحدث معهما حديثا قصيرا ٠

ان « فيليب أوجست » ولد صغير سىء الخلق أشعث الشعر قذر من أخمص قدمه الى قمة رأسه ، ذو وجه تلوح عليه البلاهة ٠ أما مارى لويز فكانت تشبه أمها فى كل شىء ، تتحدث مثلها ، وتكرر عباراتها وكلماتها ، وتقلدها حتى فى حركاتها ، وتردد أيضا نفس عباراتها : « ماذا هنالك من جديد بالوزارة » ويجيبها والدها فى مرح : « أيتها الصغيرة » ان صديقك رامون الذى يأتى ويتغذى معنا هنا كل شهر سيتركنا ٠ لقد أتى وكيل جديد بدلا منه » وترفع الفتاة عينيها لتنظر الى والدها فى براءة الطفل الصغير : ثم تقول : « لقد قفز اذن واحد آخر من فوق ظهرك » فضحك كرافان دون أن يجيب ، ولكى يغير الحديث قال موجها الكلام الى زوجته التى كانت لا تزال تلمع زجاج المنزل ، حتى هذا الوقت : « هل والدتى بخير فى أعلى ؟ »

وتوقفت عندئذ مدام كرافان عن الدعك واستدارت اليه ووضعت فوق رأسها القبعة التى كانت قد سقطت فوق ظهرها وارتعشت شفتاها ٠٠

ـ « نعم لتتكلم عن والدتك ، لقد أرادت ان تبدى لى ملاحتها اليوم ! تصور أنه منذ قليل صعدت الى مدام

« ليبو دان » زوجة الحلاق لكى تقترض منى علبة من النشاء فطردتها وعاملتها كما لو كانت « شحاذة » لانى لم أكن موجودة بالمنزل ، ولذلك فقد لمتهـــا فتظاهرت بالصمم كعادتها عنـدما تتلى عليها الحقائق ، ولكنها ليست أشـد صمما منى ، خذها منى كلمة ، هـذا تبلد ، كل هذا والدليل على ذلك أنها صعدت الى حجرتها فى الحال دون أن تنبس ببنت شفة » وارتبـك كرفان وسكت ، وأسرعت الخـادمة ضئيلة الجسم تدعوهم للعشـاء . ولكى ينبه كرفان والدته تناول يد مكنسة مخبأة دائمـا فى ركن من الأركان ودق بها السقف ثلاث دقات ، ثم انتقل الجميع الى حجرة الطعام ، وقدمت مدام كرفان الشابة الحساء ، وبقوا فى انتظار مقدم مدام كرفان العجوز . لم تحضر هذه وبدأ الحساء يبرد فأخذوا يأكلون فى تباطؤ وفرغت الأطبـاق وهم مازالوا فى انتظارها وفى ثورة جامحة وجهت مدام كرفان الكلام لزوجها : « انها تفعل هذا عامدة ، أتعـرف ذلك ؟ لأنك دائمـا تؤيدها ووقع الزوج فى حيرة شديدة بين الاثنتين ولـكنه أرسل مارى لويز لتصحب جدتها ، وبقى ساكنا ، خافضا عينيه ، وفى الوقت نفسه كانت زوجته تنقر بالسكين فى عصـبية ظاهرة على أسفل كوبتهـا ، وفجأة فتح البـاب وظهرت الفتاة من جديد شاحبة اللون تكاد تتوقف أنفاسها ، وقالت وهى تتكلم بسرعة : « ان جـدتى ملقـاة على الارض .... » .

وانتفض كـرافان واقفـا وألقى بمنشفته على المائدة واندفع الى السلم يدقه بخطواته الثقيلة السرعة التى كان صوتها يدوى ، وفى نفس الوقت تبعته فى بطء زوجته وهى تهـز باشمئزاز كتفيها فقد كانت تظن أنها خدعة خبيثة من خدع حماتها .

كانت العجوز ملقاة بطولها على وجهها وسط الحجرة فادارها ابنها ولكنهـا كانت جـامدة ودون حـراك ، جلدها مصفر مغضن مدبوغ ، وعيناها مقفلتان ، وأسنانها محكمة الاطباق بعضـها على بعض ، وكل جسدها النحيل فى حالة تصلب .

وركـع كـرافان على ركبتيه وهو يجأر : « مسكينة أنت يا أماه ! مسكينة أنت يا أمـاه ! » ولكن مـدام كرافان الشابة تفحصتها للحظة ثم قالت : «انها مغمى عليها كالعادة وهذا كل ما فى الأمر ، وكن على يقين أن كل ذلك لكى تمنعنا من تناول العشاء » . وحملوا جسدها الى السرير ثم خلعوا عنه الملابس تماما وأخذ الجميع يدلكونه : كرافان وزوجته والخادمة ولكن على الرغم من جهودهم لم تعـد العجوز الى وعيها ، فارسلوا الخادمة « روزالى » لاستدعاء « الدكتور شينيه .

كان هـذا يقطن بعيدا عن رصيف النهر بالقرب من « سيرسين » ولذا كان الانتظار طويلا وأخيرا حضر شينيه وبعد أن نظر الى السيدة العجوز وجسـها

وفحصها نطق هذه الكلمات : « تلك هى النهاية » ·

وارتمى كرافان فوق جسدها وهو يهتز من النشيج المتلاحق ، يقبل فى تشنج وجه أمه المتصلب ودموعه تفيض بغزارة فتبلل قطراتها وجه السيدة المتوفاة · أما مدام كرافان الشابة فقد أصابتها نوبة غم حقيقية ، وكانت ترسل وهى واقفةخلف زوجها تأوهات خافتة ، وتدعك عينيها فى عناد ·

وانتفض كرافان فجأة بوجهه المنتفخ وشعيراته المبعثرة فهو يبدو شديد القبح عندما يلم به حزن صادق : «ولكن هل أنت متأكد يا دكتور ؟ تمام التأكد » فاقترب المراقب الصحى وقلب الجثة فى براعة علمية مثل تاجر يقدر ثمن سلعته وقال : « تقدم أيها الطبيب وأنظر الى العين · ثم رفع الجفن وبدت نظرة السيدة العجوز تحت اصبعه وليس بها أدنى تغيير وبدت حدقتها أكثر اتساعا· وشعر كرافان بصدمة فى قلبه وبخوف يسرى فى مفاصله · ثم أخذ السيد شنيبية وهو ثائر كما لو كان أمامه شخص يعارضه ، أخذ ذراعها وضغط على أصابعها لكى يفتحها : «انظروا فقط الى هذه اليد ، اننى لا يمكن أن أخطئها ، فكونوا على يقين » · وسقط كرافان يتمرغ فوق السرير وهو خائر القوى تقريبا ، فى الوقت الذى أخذت فيه زوجته تقوم بعمل الأشياء الضرورية ، متظاهرة بالبكاء · قربت من السرير منضدة صغيرة ، بسطت عليها غطاء ، ووضعت فوقه أربع شمعات أضاءتها جميعا ، وأخذت غصنا معلقا خلف مرآة المدفأة ووضعته بين الشموع فى طبق ملأته بالماء الرائق لأنه لم يكن لديها ماء مقدس ولكن بعد تفكير سريع ألقت فى هذا الماء ذرة من الملح وهى تتخيل دون شك أن ذلك يكسبها نوعا من القداسة ·

ونزل كرافانفى الصباح عندماناداته زوجته وكانت قد أعدت قائمة بالأشياء التى يجب عملها فى الصباح فناولته هذه القائمة ففزع عند رؤيتها وقرأ :

١ ـ اعلان الخبر فى مقر العمدة ·

٢ ـ استدعاء طبيب الموتى ·

٣ ـ التوصية بعمل التابوت ·

٤ ـ المرور بالكنيسة ·

٥ ـ وبمحل الفراشة ·

٦ ـ وبمطبعة الخطابات ·

٧ ـ عند مسجل الكنيسة ·

٨ ـ وبالتلغراف لكىيخبر العائلة ، وعلاوة على ذلك سيل من المشاوير الصغيرة

ثم أخذ قبعته وانصرف ·

كان النبأ فى ذلك الوقت قد انتشر وبدأ الجيران يفدون لرؤية المتوفاة ، وعند الحلاق فى «البدروم» كان يجرى مشهد مسرحى بين الزوج وزوجته خاصا بهذا الموضوع فى أثناء حلاقته لأحد الزبائن · همست الزوجة قائلة وهى تصنع جوربا من التريكو :

« بناقص واحدة ·· واحدة بخيلة ،

لم يخلق مثلها كثير ·· اننى لم أكن فى الحقيقة أحبهـا ولكن مع ذلك يجب أن أذهب لرؤيتها »

وزمجر الزوج وهو يغطى ذقن زبونه بالصابون : «هذه خواطر لا داعى لها !، ان النساء قد خلقن لهذا · ليس يكفيهن أن يضايقنك فى الحيـاة ، بل انهن لا يستطعن حتى أن يتركنك تنعم بالراحة بعـد الموت » فاجابت زوجته دون أن تنفعل : « هذا شىء أقوى منى ، يجب أن أذهب ، ان هـذا الامر يشغلنى منـذ الصباح ، اننى اذا لم أرها يخيـل الى أننى سأظل أذكر ذلك طول حيـاتى ولكنى اذا تأملتها جيدا لأتذكر ملامحها فسأكون راضية بعد ذلك ، وهز الرجل كتفيه وهو ممسك بالموسى ، وأسر الى السيد الذى كان يحلق له ذقنه : «اننى أسألك قليلا ·· ما هى أفكارك بالنسبة لهذه المقدسـات النسـائية ؟ ، اننى شخصيـا لست ممن يتسلون برؤية ميت » بيـد أن زوجته سمعته فاجابته بغير تردد : « ان الامر كذلك ··· انه كذلك ! » ثم وضعت الجورب فـوق المنضدة وصـعدت الى الدور الاول · وكانت قدحضرت آنذاك جارتان أخريان وبقيتا تتحـدثان مع مدام كرافان عن الحادثة وهى تقص عليهما تفاصيلها ·

وتوجه الجميع صوب الحجرة الجنائزية ودخلت السـيدات الاربع دون جلبة ورشت الواحدة تلو الاخرى الغطاء بالماء المملح وركعن ، ورسمن علامة الصليب، ثم تمتمن بصلاة قصيرة ثم نهضن وقد ازدادت أعينهن اتساعا، وفغرن أفواههن وهن يتفحصن الجثـة لمـدة طويلة ، ووضعت زوجة ابن المتوفاة منديلا فوق عينيها ثم اصطنعت تنهيدة يائسة ·

وعندما اسـتدارت مـدام كرافان لتخرج لمحت خلفهـا بالقرب من الباب مارى لـويز وفيليب أوجست ، يرتدى الاثنان قميصيهما وينظران فى فضول ، عنـدئذ نسـيت حزنهـا الاضـطرارى وأسرعت نحيهمـا مرفوعة اليـد تصرخ بصوت مدمر : « ارحلا من هنا أيهـا المتشردان الأبلهان الثقيلان » · وصعدت مرة ثانية مع حفنة أخرى من الجـارات ولوحت بالغض فوق حماتهـا من جديد وصلت وسكبت الدموع وأتمت جميع واجباتها ثم التفتت فوجدت خلفهـا ولديها وقد عادا من جديد ، فصفعتهما بشـدة ، ثم لم تهتم بعد ذلك عنـد قدومهما فى المرة التالية · وعند قدوم أى زوار بعد ذلك كان الصغيران يقلدان دائما ـ وهمـا راكعـان فى ركن من الاركان ـ أمهما فى كل ما كانت تفعله أمامهما ·

وقلت وفود الفضوليات تدريجيا بعد الظهيرة ثم ما لبثت أن انقطعت نهائيا فعادت مدام كرافان الى شقتها وانشغلت فى تجهيز كل مايلزم للطقوس الجنائزية وبقيت الميتة بمفردها ·

كانت نافذة الحجرة مفتوحة ، تدخل منها حرارة محرقة مع الغبار المنتشر ، وكان لهب الشمعـات الاربع يتحرك بالقرب من الجسد السـاكن ، وفوق الغطاء وعلى الوجه ذى الأعين المقفلة ، وفوق اليدين الممـدودتين كان الذباب الصغير يتسلق ويروح ويغـدو ويتجول بدون انقطاع كأنه يزور السيدة العجوز فى انتظار ساعتها الاخيرة ·

وعنـــدما عادت مارى لويز وفيليب أوجست ليتجولا من جديد فى الشارع أحاط بهما الزملاء من كل جانب (وعلى الاخص الفتيـــات الصـــغيرات الاكثر نضوجا وادراكا لغوامض الحياة) وأخذن فى استجوابهما تمـــاما كمـــا يفعـــل الاشخاص الكبار ·

ـ « هل ماتت جدتك »

ـ « نعم أمس مساء »

ـ كيف يكون الميت ·

فأخذت مارى لويز تشرح وتقص عن الشموع والغض والوجه وعندئذ اشتعل الفضـــول فى جميع الاطفـــال وطلبوا الصعود عند الميتة · وفى الحال نظمت مارى لويز رحـــلة أولى من خمس بنات وولدين كانوا أكبر وأشجع الموجودين ، ولكى لا يكتشفهم أحـــد أرغمتهم مارى لويز على خلع نعالهم وتسللت الجماعة الى المنزل وصعدت بمهـــارة كجيش من الفيران · وفى الحجرة نظمت الفتـــاة الصغيرة اقامة الطقـوس مقلدة فى ذلك والدتها ، فقادت زملاءها فى احتفـــال مهيب وركعت ورسمت عـــلامة الصليب وحركت شفتيهـــا ثـــم نهضت ورشت السرير · وفى ذلـــك الوقت اقتـــرب الاطفـــال وهم متراصـــون كأنهم حفنة واحدة يملؤهم الخـــوف والفضـــول والذهول ليتأملوا وجه العجوز ويديها ، وتصطنع مارى لويز فجأة البكاء مخبئة عينيها فى منديلهـــا الصغير ، ثم تهدأ عندما تفكر فى هؤلاء المنتظرين بالباب فتسرع فى اصطحاب من معها الى الخارج لتحضر مجمـــوعة ثانية ثم ثالثة ، لان جميـــع أطفـــال المدينة أشقياء ، وحتى الشحاذين فى ثيابهم البالية كانيهرعون للتمتع بهـــذه المتعة الجديدة · وكانت مارى لويز تبـــدأ فى كل مرة من جديد فى محاكاة أمها باتقان تام، وفى النهاية تعبت فانصرف الاطفـــال بعيدا الى لعبة أخرى وبقيت الجدة وحيدة منسية تماما من العـــالم كله · كانت الظلال تمـــلأ الحجرة وكان لهب الشموع المهتز يجعل الاضواء تتراقص فوق وجهها الجـــامد المجعد · وحوالى الساعة الثامنة مساء صعد كرافان وأغلق النـــافذة واستبدل شموعا جديدة بالشـــموع · كان يدخل فى هدوء وكالعادة يتفحص الجثة كمـــا لو أنها كانت هناك منذ شهور · لقـــد اكتشف أنه لم يظهر بها أى تحلل بعد فابدى هذه الملحوظة لزوجته فى أثنـــاء جلوسهم الى المـــائدة لتناول الطعـــام فأجابته . « اطمئن ، انهـــا مخلوقة من خشب ولن تبلى قبل عام » ثم تناولوا الطعام دون أن ينطق أحدهم بكلمة ، أما الاطفـــال فكان التعب قد أنهكهم لانهم ظلوا منطلقين طوال اليوم فنـــاموا فوق مقاعدهم ، وبقى الجميع فى سكون · وفجأة انخفض ضـــوء المصباح فأدارت مدام كرافان مفتـــاحه لكنه أحدث صوتا مجـــوفا وحشرجة طويلة ثم انطفأ نوره نهائيا · لقـــد نسوا فى غمرة الانشغال شراء زيت ! والذهاب الى البقالسيؤخر موعد العشاء فأخذوا يبحثون عن بعض الشموع ولم يجدوا فى النهـــاية سوى الشمعات المضـــاءة فوق المنضدة بالدور الأعلى · ولما كانت مدام كرفان سريعة فى اتخـــاذ قراراتها فقد أرسلت مارى

لويز على عجل لتحضر اثنتين منهما ، وظل الباقون ينتظرون وسط الظلام . لقد سمعوا بوضوح وقع أقدام الفتاة وهى تصعد السلم ، ثم تبع ذلك سكون لمدة لحظات ثم عادت الابنة مسرعة وفتحت الباب وهى فزعة ، وكانت أكثر انزعاجا من الليلة السابقة عندما أخبرتهم بالفاجعة قالت فى صوت منخفض وأنفاسها تكاد تختنق : « ان جدتى ترتدى ملابسها ياأبى !» وانتفض كرافان واقفا وهو يرتجف وتدحرج مقعده ، وارتطم بالحائط ثم قال متلعثما: « أنت تقولين ... ما الذى تقولينه ؟»

ولكن مارى لويز أعادت هذه العبارة وهى تكاد تختنق من شدة الانفعال .. « ج ... ج ... جدتى ترتدى ملابسها وستنزل » .

فاندفع كرافان الى السلم فى جنون تتبعه زوجته وهى مشدوهة ثم وقف أمام باب الدور الثانى يرتجف من الفزع دون أن يجرؤ على الدخول . ماذا تراه سيرى ؟ وكانت مدام كرافان أكثر منه شجاعة فأدارت القفل ودخلت الحجرة وبدت الحجرة وكأنها ازدادت ظلمة ، وفى وسطها شبح طويل نحيل يتحرك . لقد كانت هى العجوز التى تقف ، والتى لما أفاقت من غيبوبتها ، وقبل أن تعود تماما الى رشدها استدارت متكئة على مرفقها وأطفأت ثلاثا من الشمعات الاربع التى كانت تحترق بجانب سرير الموت ، ولما استعادت كامل قوتها نهضت لتبحث عن ملابسها ، ولقد أزعجها عدم وجود (الكومودين) الخاص بها فى بادىء الامر ولكنها وجدت بالتدريج حاجياتها داخل صندوق خشبى فارتدت ملابسها فى هدوء . وأفرغت الطبق المملوء بالماء وأعادت الغض الى مكانه خلف المرآة والمقاعد الى أماكنها وعندما أصبحت مستعدة للنزول ظهر أمامها ولدها وزوجته وأسرع كرافان والدموع تملأ عينيه وأمسك بيديها وقبلها ووقفت زوجته خلفه تكرر فى خبث : «يالللسعادة يالللسعادة ! » وسألت العجوز وهى مشدودة كالتمثال وعينها متحجرة دون أن ترق أو تبدو عليها أنها تفهم سر ما يدور حولها سألتهم فقط : هل أعد العشاء ؟ فأجاب كرافان وهو يكاد يفقد رأسه : « أجل يا والدتى ونحن فى انتظارك ! » وبسرعة غير عادية أمسك بذراعها وأمسكت مدام كرافان الشابة بشمعة لتنير لهما ونزلت أمامهما السلم بظهرها درجة درجة ، وعند وصولهم للدور الاول أوشكت مدام كرافان أن تصطدم بالقادمين خلفها فلما استدارت تبينت أنهم عائلة « شارنتون » ومدام « برو » وزوجها . وفتحت مدام برو وهى طويلة القامة غليظة ذات كرش تشبه المصابين بداء الاستسقاء ، ويميل بقفصها الصدرى الى الخلف فتحت عينيها فى ذعر واستعدت للهرب ، أما زوجها وهو اسكاف قصير القامة مغطى بالشعر حتى أنفه ، يشبه القرد تمام الشبه فقد همس دون أن يبدو عليه أى تأثير :

« ما هذا ؟ هل بعثت من جديد ؟ » وما ان رأتهم مدام كرافان حتى أشارت لهم اشارات يائسة ، ثم قالت لهم بصوت مرتفع : « ما هذا ؟ لقد حضرتم اذن ! يا لها من مفاجأة سعيدة » ولم تفهم مدام برو وأجابت بصوت منخفض وهى فى ذهول : « انها برقيتكم هى التى أتت بنا الى هنا ، لقد كنا نظن أن كل شىء قد انتهى . » وكان زوجها واقفا خلفها يقرصها لكى تسكت ثم يضيف وهو يضحك ضحكة ماكرة ، تحجبها ذقنه الكثيفة : « كم كان لطيفا منكم أن دعوتمونا ، لقد جئنا اليكم على عجل » وكان يشير بذلك الى المشاحنات التى تسيطر منذ زمن بعيد على الطرفين . وما ان وصلت العجوز الى الدرجات الاخيرة من السلم حتى تقدم منها برو فى حيوية ورفع عن خدها الشعر الذى يغطيه ، ونظرا لفقدانها السمع فقد صاح فى أذنها : « كيف حالك أيتها الوالدة ؟ متينة كعادتك ! أليس كذلك ؟ »

ولم تجرؤ مدام برو حتى على أن تقبل والدتها فهى فى دهشة من أمرها ، كيف تجدها حية من كانت تظن أنها فى عداد الاموات . وظلت مدام برو واقفة تسد الطريق ببطنها أمام بقية القادمين.

كان يبدو على العجوز القلق والشك ولكنها لم تتكلم بل كانت تلتفت الى هذا الجمع الذى يحوطها وتسرح نظراتها من شخص لآخر ، وكانت عينها الرمادية الصغيرة تمتلىء بالخواطر المرئية التى يتضايق منها أبناؤها . ولكى يوضح كرافان الامر قال : « لقد كانت متعبة بعض الشىء ولكنها تحسنت الآن . تحسنت تماما . أليس كذلك يا أماه !

فأجابت السيدة وهي تتابع سيرها بصوت ضعيف كأنه آت من بعيد : «لقد كانت اغماءة وكنت أسمعكم طول الوقت » وتبع ذلك سكون محير ثم توجهوا الى الصالة وجلسوا حول عشاء أعد لهم في دقائق • ان السيد برو فقط هو الذي ظل محتفظا بثباته ، ولكنه من حين لآخر كان يقطب وجهه الذي يشبه وجه الغوريلا الشرسة ويطلق كلمات ذات معنيين يتضايق منها الجميع بوضوح ، وكان جرس البهو يدق كل لحظة وتأتي روزالي في حيرة تبحث عن سيدها فيلقى كرافان بمنشفته وهو يندفع اليها فيساله زوج أخته السيد برو عما اذا كان هذا اليوم يوم استقباله فيجيب متلعثما : « لا بل هي أعمال لا شيء مطلقا » وفي تلك الاثناء أحضرت له روزالين ربطة ففتحها ببلاهة ولما وجد بها خطابات للتعزية مجللة بالسواد أعاد اغلاق الربطة ودسها في خجل شديد داخل صديريته، والتفتت العجوز ذات الوجه المجعد الذي يشبه وجه الساحرة ، والعينين المرتعشتين الماكرتين الى ابنتها وقالت : « احضري لي ابنتك يوم الاثنين فاني أريد رؤيتها » وأشرق وجه مدام برو وصاحت : «سمعا وطاعة يا أماه» وشحب وجه مدام كرافان وهي تتميز من الغيظ • وفتح الباب وظهر منه الدكتور شنيبه فانتابه الذهول لحظة ، لكنه تمالك نفسه واقترب من العجوز وقال : « انك تبدين أحسن حالا اليوم أيتها الوالدة ، انني لم أكن أشك في ذلك ، تصوري أني كنت أخاطب نفسي وأنا أصعد السلم وأقول : «سوف أجدها واقفة ، تلك المخضرمة ، انني أراهن على ذلك ، انها قوية مثل جسر « بون نيف » سوف تدفننا جميعا وسترون وجلس شنيه وقدمت له القهوة فشربها وعندما شعرت العجوز بالتعب وأرادت الانصراف أمسكت بذراع ابنتها وغابت عن الانظار •

وبقي كرفان وزوجته في حالة ذهول وصمت ، فقد كانا واقعين في نكبة مخيفة ، في حين كان برو يفرك يديه ويرتشف قهوته بتنغيم وفجأة جن جنون مدام كرافان من الغضب فانطلقت اليه وهي تنبح « انك لص ، انك منحط ومن أسافل القوم ، انني أبصق في وجهك• انني •• انني ••• » ولم تجد شيئا شيئا آخر تقوله ليضايقه لكنه استمر في شرب القهوة وهو يضحك •

وكانت زوجة برو قد أقبلت لتوها فانطلقت نحو زوجة أخيها ، وتبادلتا بأعلى صوتيهما قناطير مقنطرة من السباب الاولى بطنها ضخم ومرعب ، والثانية مصابة بالصرع نحيلة ذات صوت متلون ويد مرتعشة •

وتدخل شينيه وبرو ودفع هذا الاخير نصف زوجته وهو ممسك بكتفيها وقذف بها الى الخارج صائحا ، «اذهبي أيتها الجحشة انك تنهقين كثيرا ! » ثم سمعا يتشاجران وهما يبتعدان في الطريق وانسحب السيد شينيه وبقيت عائلة كرافان وجها لوجه، وسقط الرجل على مقعد والعرق البارد يتصبب من جبينه وهمس قائلا :

« ماذا سأقول غدا للرئيس ؟ »